الفكر التنويري العربي في القرن التاسع عشر
- حمدان بن عثمان خوجة ورافع رفاعة الطهطاوي نموذجا -

ملخص

يتناول المقال دراسة الفكر التنويري لدى كل من حمدان خوجة ورفاعة الطهطاوي، حيث سمحت لنا هذه الدراسة بالوقوف على أفكارهما ومساهمتهما في الدفاع عن مشاريعهما الحضارية، وإبراز جوانب التقاطع والالتقاء بينهما وجعل حمدان خوجة شخصية محورية يتم التركيز عليها فيما ذهب إليه من أفكار تنويرية.

أ. يسمينة زمولي

مخبر تاريخ، تراث ومجتمع
جامعة قسنطينة 2
الجزائر

مقدمة

كثيرة هي الدراسات التي تناولت الفكر التنويري العربي خلال القرن التاسع عشر، متطرقة إلى رواده الأوائل في البلاد العربية، مبرزة تطلعاتهم وآمالهم للاستفادة من المدنية الأوروبية، بعدما اكتشفوا التخلف الذي عليه بلدانهم نتيجة الفشل العسكري الذي عرفته الدولة العثمانية بشكل عام سنة 1699، ثم دويلاتها المشرقية والمغربية إثر حملة نابليون بونابرت على مصر سنة 1798، لتتوالى الهزائم الذريعة أمام القوة العسكرية الأوروبية سنة 1830 في الجزائر، وليتأكد في معركة تسلي سنة 1844 بالمغرب الأقصى.

Résumé

Notre présente étude porte sur la pensée issue des Lumières de Hamdane Khodja et Rifaa Tahtaoui et leur contribution à l'élaboration d'un projet de civilisation, dans ce contexte de profond bouleversement, où l'Algérie succombait à la domination française au moment où L'Egypte de Mohamed Ali œuvrait pour une modernité sur le modèle français.

© جامعة قسنطينة 1، الجزائر2014.

وعلى إثر ذلك سعت بعض البلدان العربية وقبلها الدولة العثمانية إلى اللحاق بما يحدث في أوروبا من تقدم وحداثة منذ أكثر من نصف قرن، إلا أن هذه المحاولات الحداثية تفاوتت من حيث العمق والفاعلية؛ فلقد تميزت التجربة المصرية بخصوصيتها وكانت أكثر تجذرا على المستوى الصناعي والعسكري، في حين كانت التجربة اللبنانية متجذرة على المستوى الثقافي واللغوي، أما التجربة التونسية فعرفت أكثر بتجذرها على المستوى السياسي (1). بينما أجهضت التجربة الحداثية الجزائرية في مهدها من قبل الاحتلال الفرنسي خوفا من ردة فعل الجزائريين تجاه السياسة الاستعمارية.

ويرجع الفضل الأول إلى محمد علي باشا مصر في بعث المحاولات الحداثية الأولى، كما تظهر تجلياتها في الدولة العثمانية وبعض البلدان العربية كتونس مثلا، في إصلاحات خير الدين وغيره من المصلحين التونسيين من بعده، وهذا من خلال محاكاة التجربة الأوروبية مع المحافظة على ذاته وهويته التاريخية (2).

لقد تميز القرن التاسع عشر بظهور تيار إصلاحي متنور في وجه التيار السلفي الوهابي، قائم على تقبل الآخر ثقافيا وحضاريا، إذ تبناه على المستوى الرسمي في البداية بعض حكام العرب منهم محمد علي باشا مصر وأحمد باي تونس، أما على مستوى الأشخاص فمثّله كل من محمد ابن العنابي وحمدان خوجة من الجزائر، والشيخ حسن العطار وتلميذه رفاعة الطهطاوي من مصر خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. ثم يأتي كل من خير الدين التونسي ومحمد الحجوي وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وغيرهم من المجددين العرب غربا وشرقا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

ويكون الاقتصار هنا على دراسة شخصيتين ورائدين فحسب، حيث ارتأيت أن أساهم في الكتاب التكريمي للفقيدة الأستاذة عائشة غطاس بمقال يتناول دراسة الفكر التنويري لدى كل من حمدان خوجة ورفاعة الطهطاوي. وهذا بالوقوف على أفكارهما ومساهماتهما في الدفاع عن مشاريعهما الحضارية، حتى وإن اختلفت من حيث الأهداف والغايات، إلا أنها التقت من حيث الوسائل والطروحات.

يعد حمدان بن عثمان خوجة من الأوائل الذين دعوا إلى التنوير والاقتباس من المدنية الأوروبية، واستعمل وسائلها من أجل الدفاع عن القضية الجزائرية من كتابة العرائض والشكاوي والرسائل والتقارير وتقديم الحجج والبراهين للرأي العام الفرنسي والعثماني على حد سواء، حيث يقول في هذا الشأن: "ولو أن الكفار يعلمون شطر ما فعلت من تحريرات وتأليف ومراسلات مع الأجناس، وغير ذلك لا أقدر على ذكره، كل ذلك لأجل إنقاذ البلاد، لأكلوا لحمي وأوقعوا بي. والحمد الله سترني الله" ومع ذلك فجل الدراسات العربية التي تناولت رواد النهضة لم تشر إليه، على عكس الدعاية والإشهار والإشادة والتنويه الذي لقيته كتب المحدثين العرب باعتبارها من الكتب

المعجبة والداعية إلى الحداثة الأوروبية، مثل (أقوم المسالك) لخير الدين التونسي و (تخليص الإبريز) لطهطاوي، حيث جاء على لسان كوسان دي برسفال Caussin de Perceval أستاذ رفاعة قائلا: "... قد ظهر لي أن هذا التأليف يستحق كثيرا من المدح ... وأراد أن يوقظ بكتابه أهل الإسلام، ويدخل عندهم الرغبة في المعارف المفيدة، ويولّد عندهم محبة تعلم التمدن الإفرنجي، والترقي في صنائع المعاش. وما تكلم عليه من المباني السلطانية والتعليمات وغيرها أراد أن يذكر به لأهالي بلده أنه ينبغي لهم تقليد ذلك.." (3).

يرجع سبب تجاهل كتابات حمدان خوجة إلى الحصار الذي فرض عليه من قبل السلطات الاستعمارية، خاصة تغييب كتابه "المرآة " حيث كشف سياستها الاستبدادية أمام الرأي العام (4)، ليس هذا فحسب بل أتهم من قبل بعض المؤرخين الفرنسيين "إيفار" بأنه شخصية غامضة وبأنه تسبب في التعجيل بالاحتلال (5).

في حين يذهب المؤرخ الفرنسي شارل أندري جوليان نقلا عن أحد الباحثين إلى الاعتقاد بأن كتاب حمدان "الصادر عن رجل يتكلم الفرنسية ولا يقرؤها يتضمن تعابير وطنية وبعض الأفكار لبنجمين كونستن (Benjamin Constant) وغروتيوس (Grotius) وطاسيت (Tacite) بحيث لا تصدر مثل تلك الأقوال عن فكر متشبع بالروح الإسلامية بل على العكس من ذلك، هي وليدة أفكار أحرار ملكية جويلية الذين كانوا جميعا معجبين بانتفاضات اليونان وبولونيا وبلجيكا" (6).

لا يتعلق الأمر هنا بمفاضلة شخصية على أخرى، وإنما التعرف على ما قدمته كل منها من أجل بلورة الفكر التنويري العربي، ومساهماتهما في التصدي إلى حقيقة تخلف الحضارة العربية الإسلامية بطرح الحلول، وكذا الوقوف على تجربة كل شخصية وفق ظروفها وسياقاتها التاريخية من خلال النقاط التالية:

أولا- المسارات: التنشئة والتكوين / إرهاصات التنوير

أجمعت الدراسات (7) التي تناولت حمدان خوجة على أنه من عائلة جزائرية عريقة ذات ثراء ونفوذ. كما يعد من كبراء مدينة الجزائر وأغنيائها قبل الاحتلال الفرنسي.

ولد حمدان خوجة في الثلث الأخير من القرن الثامن عشر حوالي سنة 1773م (8) في أزهى فترات الجزائر العثمانية في عهد عثمان باشا الذي عرف بتشجيعه للعلم والعلماء ولكل مظاهر الثقافة في الإيالة. وعاش إلى ما بين سنة 1840م (9) و1845 (10). في هذه الأجواء تلقى حمدان خوجة تعليمه الأول على يد والده ثم على يد بعض علماء الجزائر ومنهم ابن الأمين، فكانت دراسته متينة وعميقة، حيث اطلع على مختلف علوم عصره كالمنطق والفلسفة والتاريخ والطب، وأتقن إلى جانب اللغة العربية والتركية -كتابة وقراءة- الفرنسية والإنجليزية. ولهذا اعتبره أحد الدارسين من أهم الشخصيات الجزائرية التي تمتعت بثقافة وإطلاع واسعين مستندا في حكمه هذا

على الكم الهائل من الوثائق التي تركها عن بداية الاحتلال الفرنسي وعن دفاعه عن قضية بلاده، بل أكثر من ذلك فهو يقر بأنه عالم كبير من علماء عصره (11).

فإلى جانب اشتغاله في تجارة أمواله الخاصة تولى عدة وظائف سياسية، فكان أستاذا في الحقوق والشريعة ومستشارا مقربا للداي، الذي كلّفه بالعديد من المهام الدبلوماسية. كما تولى منصب مستشار في مجلس البلدية بعد الاحتلال الفرنسي للجزائر، ومترجما في المطبعة العامرية بتركيا وصحفيا بجريدة "تقويم وقائع" العثمانية.

لقد كان حمدان خوجة مولعا بالسفر في شبابه، حيث قضى 17 سنة من عمره متجولا في مختلف بلدانها (البلقان، فرنسا، إنكلترا، إسبانيا..) قضى ثلاث سنوات منها في فرنسا من أجل الإشراف على أموره التجارية، الأمر الذي مكّنه من الإطلاع على آثار النهضة الأوروبية وذلك ما جعله عارفا بمشاكل الساحة السياسية والعسكرية الأوروبية، ومطلعا على حقيقة الصراع بين الأحلاف والكتل. فكان بذلك متقدما في التعرف على المدنية الأوروبية من الطهطاوي بحكم أسبقيته في السن.

ولد الطهطاوي في مطلع القرن التاسع عشر أي سنة 1801 وعاش إلى أواخر الربع الثالث منه أي إلى سنة 1873. وهو من عائلة شريفة يرتفع نسبها إلى الحسين بن علي بن أبي طالب من شرفاء الصعيد المصري، جمعت هذه الأسرة بين الشرف والمال مع قدر من العلم إلا أن الظروف السياسية الجديدة التي عرفتها مصر بامتلاك محمد علي لزمام الحكم، أثرت على الوضع المادي لها إلى جانب العديد من أصحاب "الالتزامات" من علماء وأشراف بسبب التخلي عن نظام الالتزام (12).

وعلى الرغم من العجز المالي الذي عرفته أسرة الطهطاوي، إلا أنه لم يقف حائلا أمام تكوينه العلمي، بل كان دافعا لتحقيق رغبة والدته ورغبته الشخصية في أن يصبح من علماء الأزهر. لقد تلقى تعليمه الأول على يد والده وأخواله ثم على العديد من شيوخ الأزهر، وعلى رأسهم الشيخ حسن العطار الذي كان له التأثير البالغ عليه في توجهه نحو التعليم الحديث والانفتاح الفكري والحضاري على الغرب هذا من جهة، من جهة أخرى بفضل مساهمة محمد علي في إجراء إصلاحات جذرية من أجل بناء دولة حديثة، وهذا ما عكسته برامجه العسكرية والسياسية والاقتصادية والعلمية.

في ظل هذه الظروف نشأ رفاعة الطهطاوي ونهل المعرفة وتشبع بالروح التنويرية، لتتدّعم بإرساله من قبل محمد علي وبتشجيع وترشيح من شيخه العطار كمرشد وواعظ لإحدى البعثات العلمية إلى فرنسا سنة 1826، ليصبح بعدها أحد أهم طلابها المتخصصين في فن الترجمة. ومن هنا أخذ على عاتقه مسؤولية اقتباس المعارف الحديثة، فوسع مطالعاته لتشمل مختلف المعارف الإنسانية وعلى رأسها القانون والفكر السياسي (13). كما عكف على ترجمة العديد من الكتب في الجغرافية والهندسة والعسكرية والسياسة والقانون.

تولى الطهطاوي العديد من الوظائف منها التدريس بالأزهر في بداية حياته، ثم واعظا للجيش فواعظا للبعثة العلمية الوافدة إلى باريس فمترجما ومشرفا على العديد من المدارس، فمديرا لمدرسة الألسن سنة 1835، ليصبح مشرفا بعدها على "قلم الترجمة"، ثم على جريدة الوقائع المصرية والعديد من الجرائد الأخرى، آخرها "روضة المدارس". وغيرها من المهام والمسؤوليات التي أوكَله بها حكام مصر الحديثة (14).

لقد تأثرت هاتان الشخصيتان كثيرا بمبادئ الثورة الفرنسية وبفلسفة الأنوار، وبما شاهدتاه في أوربا من تفوق حضاري وتنور فكري مقابل العقم الحضاري والتحجر الفكري الذي تسبب في تأخر المسلمين وضعفهم. فجاءت دعواتهما مرتكزة على ضرورة الأخذ بالتجربة الأوروبية السياسية منها والثقافية. وتجلت هذه الدعوات في فكرهما وكتاباتهما، التي عكست عمقا في التفكير وحنكة ومقدرة في معالجة القضايا السياسية والاجتماعية على حد سواء. لاسيما كتاب "المرآة" الصادر سنة 1833 و"إتحاف المنصفين" الصادر سنة 1836 لحمدان خوجة. و"تخليص الإبريز في تلخيص باريز" الصادر سنة 1834 و"مناهج الألباب المصرية في مناهج الآداب العصرية" الصادر سنة 1869 وغيرها للطهطاوي. وهي الركيزة الأساسية للفكر السياسي والاجتماعي الحديث في البلاد العربية القائم على قاعدة توفيقية بين الشريعة الإلهية والشريعة الوضعية، فهما لا ينسلخان عن هويتهما الإسلامية بل يحاولان التوفيق بين الثقافة العربية الإسلامية وبين الثقافة الغربية التنويرية.

وعلى العكس من الطهطاوي الذي كان هدفه واضحا منذ البداية، إذ أُرسل في مهمة علمية محددة المغزى من قبل محمد علي لاستيعاب وهضم العلوم والفنون الحديثة الأوروبية، لم يكن حمدان خوجة مدفوعا بضرورة ملحة للإبداع في بداية حياته، ذلك أنه كان منشغلا بأموره التجارية وتطلعاته السياسية بعيدا عن الضغوطات الخارجية، ثم الدفاع عن الجزائر من أجل تحريرها بمجرد وقوعها في يد الاحتلال، مع الأخذ بمقومات المدنية الأوروبية لبناء دولة حديثة حتى وإن حافظت فيها فرنسا على مصالحها في إطار الجزائر للجزائريين.

يشترك الرجلان إذن في هدف واحد؛ هو إرساء دعائم الدولة الحديثة القوية، كما يتفقان في تشخيص الواقع العياني الإسلامي بنظرة علمية موضوعية، فهما يحللان مقومات الحضارة الحديثة دون تناسي مقارنتها بمقومات الحضارة العربية الإسلامية من أجل البحث عن أوجه التوافق والتقارب، مبتعدين قدر الإمكان عن أوجه التنافر.

ومن هنا كان لهما الفضل في بذر البذور الأولى للحركة التنويرية التجديدية في البلاد العربية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر، وبصفة خاصة رفاعة الطهطاوي الذي مكّنته الظروف الداخلية من تحقيق أهدافه وتطلعاته في النهضة إلى حد ما عكس حمدان خوجة، إذ سعت سلطات الاحتلال بكل الأساليب إلى التضييق عليه حتى في عقر دارها فرنسا، ورفض كل أفكاره وأرائه في سياسة الاحتلال.

ثانيا- التأثر بفلسفة الأنوار والدعوة إلى التنوير

لقد زار حمدان خوجة مناطق عدة من أوروبا ضمن جولاته التجارية، وتعرف على متاجرها ومصانعها، ومعسكراتها وإداراتها، واحتك بأوساطها واجتمع برجالات الثقافة والسياسة فيها، كما عقد صداقات مع الكثيرين منهم، ما جعله يشيد بها وينوه بمدنيتها إذ جاء في كتابه "المرآة" (15): "عشت في أوروبا وتذوقت ثمرة مدنيتها. وأنا واحد من المعجبين بالسياسة المتبعة في كثير من الدول الأوروبية". ولم يخف إعجابه بما وصلت إليه الحضارة الأوروبية حيث يقول: "لقد عشت في أوروبا وتذوقت طعم الحضارة وإني لأحسب من جملة أولئك الذين يعجبون بالسياسة التي تمارسها بعض الحكومات هناك" (16).

أشاد حمدان خوجة كثيرا بالعدالة الاجتماعية والحقوق الإنسانية التي وقف عليها بفرنسا، خاصة وأنها متساوية مع المبادئ والمقاصد الإسلامية حيث يظهر هذا في قوله: "... وقد درست –أثناء سفري إلى أوربا- الأسس التي بني عليها الأوروبيون قوانين حريتهم، واستخرجوا منها رصيد حكوماتهم الجمهورية فوجدتها على أتمّ التشبيه بالأسس الحقيقية التي بنيت عليها شريعتنا الإسلامية، ما عدا بعض الاختلاف الدقيق في كيفية التطبيق. ولو أن هؤلاء السادة المتحررين قد عرفوا جيدا أسس شريعتنا وقوانين ديننا وما يحتويه، من الترغيب في تحرير العباد والترهيب من استعبادهم، لوجدنا فيهم مساعدين، بدل هؤلاء المخاصمين الذين تراهم –الآن- يقفون حجر عثرة في طريقنا" (17).

فمن حسن حظ الطهطاوي أنه درس على مجموعة هامة من علماء فرنسا آنذاك، واستفاد من فكرهم التنويري، كما ربطته علاقات ودية مع الكثيرين منهم. وكان قريبا من الحياة العامة الباريسية حيث سجل كل ما عايشه وشاهده من إنجازات مادية وفكرية وأبدى إعجابه بما شهده من تقدم في كتابه "تلخيص الإبريز" (18).

لم يقف الرجلان عند حد الإعجاب، بل ذهب حمدان خوجة إلى دعوة أصحاب القرار إلى الأخذ بالمدنية الأوروبية في كتابه "إتحاف المنصفين" (19): "كما أقوال الحكمة وأفعالها، لا يستنكف العاقل عن اقتنائها؛ لضعة من فعلها أو قالها، بل يبادر للحق وقبوله، واستجلاب النفع... في كثير مما ابتكره الفرنج، ... مما يتعلق بأمر دنياهم ...". وانتقد الجمود والتخلف الذي عرفه المسلمون بسبب جهل الملوك للقوانين وعدم مسايرتهم للتطورات الآنية من ناحية، وبسبب إغلاق باب الاجتهاد من ناحية أخرى، إذ دعا إلى تخليص الدين من الشوائب التي علقت به بسبب تزمت رجال التصوف داعيا إلى النهوض واليقظة بقوله (20): "وهذا دأب المزيفين من مدعي التصوف، دائما يتهجمون على استخراج الأحكام الشرعية –بجهلهم- من الآيات ومن الأحاديث الموضوعة، ويتغالون في الدين. قال تعالى: "لا تغلوا في دينكم" (21) . ثم المقرر أنه إذا كان في واقعة تسعة وتسعون قولا تقتضي التكفير، وقول واحد يقتضي عدم التكفير، فالفتوى على هذا القول الواحد دونها...".

ودعا إلى الأخذ بأسباب التقدم والانفتاح ومسايرة العصر بقوله: ""تترتب عن الزمن وحاجات الإنسان ظروف لم تتوقعها القوانين، ولذلك يجب على المشرع أن يتفهم الضرورات ويعمل على إيجاد كيفية حكيمة لتطبيق القوانين". وحسب قول حمدان أن هذه قاعدة من قواعد الشريعة الإسلامية التي لا تتعارض مع مبدأ الانفتاح والتطور. ثم يقول: "لكن من سوء الحظ أن سائر الملوك يجهلون مبادئ هذه القوانين، مما يجعل أوروبا تنتقد تشريع الشرق" (22).

لم يكتف حمدان خوجة بنقد واقع المسلمين وحسب، بل سعى إلى دعوة السلطان العثماني محمود الثاني إلى الأخذ بالتقدم العلمي والمعرفي حرصا منه على بذر روح التجديد والنهضة في نفوس المسلمين وعقولهم: "إن كل عصر له متطلبات وخصائل جديدة، ولدى ظهور عادة حديثة، وجب التخلي عن القديم حتى نتفادى حدوث اضطراب وقلق في الشعب، وحتى لا يعرقل ذلك تسيير دولاب الإدارة الناجحة"(23). وهو ما يعكس عمق نظرته وشمولية فكره في الإصلاح والتحديث.

ولم يكن حمدان خوجة يرى لتحقيق هذه الآمال والدعوات حرجا في الاستعانة بالأوروبيين والاستفادة من خبراتهم وتجاربهم إذ ذهب إلى القول: "فلا بأس بأن يستعان برأيهم، وكيف لا؟ والله سبحانه يقول في حقهم: "يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا" (24) فأثبت لهم العلم في ذلك، ونحن قد سلمنا لهم بمهارتهم في الطب واختصاصهم بالصنائع المهمة، وقد أخذنا بعض المهن منهم، وتعلمناها عنهم؛ كعمل البارود وكيفية المحاربة به، وآلات ذلك بغير نكير" (25). بل يزيد على ذلك بقوله: "وأكثر ما تمهروا فيه، مبناه على التجربة. وهي تستلزم كثرة الاعتناء والممارسة. ولا عبرة ممن أنكر ذلك. تعصبا في غير محله" (26). فهو بهذا يدعو إلى الانفتاح على العلوم العقلية التجريبية إلى جانب العلوم النقلية، وعدم الاكتفاء بأنصاف الحلول ما دامت لا تتعارض مع الدين إذ جاء على لسانه في هذا الشأن: "أن مبنى إنكار من أنكر كل ما نسب إلى الفرنج، إنما مبناه على الجهل، والتعصب. فكما نقبل ما ثبت بتجاربهم في الطب بالإجماع ينبغي أن نقبل كلّ ما ثبت عنهم، وتحقق في غيره، ما لم يناقض ديننا" (27).

لم يكن حمدان خوجة وحده من دعا إلى نبذ الجمود والانغلاق ودفع المسلمين إلى الانفتاح على المجتمعات المتحضرة إذ شاركه رفاعة الطهطاوي في هذه الدعوات وناضل من أجل تحقيقها، بل كان يرى في "تجديد المخالطات" السبيل الأنجع في النهوض بالمجتمع المصري لتحقيق التفوق الحضاري وبناء الوطن المأمول حيث أشار إلى ذلك في كتابه "مناهج الألباب (28) فقال: "المخالطة مغناطيس المنافع، فهي تساوي حركة العمل في ذلك، وكلاهما لا يستغني عن الحرية والرخصة، ومنبع الجميع كسب المعارف العمومية والمحبة الوطنية التي يترتب عليها اجتماع القلوب، والتعاون في إبلاغ الوطن المطلوب، فمخالطة الأغراب، لا سيما إذا كانوا من أولي الألباب تجلب للأوطان من المنافع العمومية العجب العجاب".

وهنا نجد رفاعة الطهطاوي يتفق مع حمدان خوجة في أن ما وصلت إليه أوربا من تفوق علمي كان بفضل انفتاحهم على المسلمين خلال عصر النهضة، حيث طوروا المورث العربي الإسلامي وزادوا عليه، كما "أن العلم والمعرفة لا وطن لهما ولا قومية" (29) على حد قوله.

وكان يرى أن مصر لا يمكنها أن تحقق نهضة دون انفتاح الجامع الأزهر على العلوم الحديثة، فدعاه إلى تطوير مناهجه وبرامجه وفتح أبوابه لعلوم أوروبا، خاصة وأن محمد علي بذل الجهد اللازم من أجل النهوض بمصر بقوله (30) : " ... فقد جدد –أي محمد علي- دروس العلوم ... لم يستطع إلى الآن أن يعمم أنوار هذه المعارف المتنوعة بالجامع الأزهر الأنور، ولم يجذب طلابه إلى تكميل عقولهم بالعلوم الحكمية التي نفعها في الوطن ليس ينكر ... ومدارك سلوك جادة الرشاد والإصابة، منوط بعد ولي الأمر بهذه العصابة التي ينبغي أن تضيف إلى ما يجب عليها من نشر السنة الشريفة ورفع أعلام الشريعة المنيفة معرفة سائر المعارف البشرية المدنية التي لها مدخل في تقديم الوطنية ... وأن هذه العلوم الحكمية العملية التي يظهر الآن أنها أجنبية هي علوم إسلامية نقلها الأجانب إلى لغاتهم من الكتب العربية ولم تزل كتبها إلى الآن في خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة بل لا يزال يتشبث بقراءتها ودرسها من أهل أوروبا حكماء الأزمنة الأخيرة ...".

لقد وضع حمدان خوجة منذ البداية شروطا للتعلم الأوروبي، بحيث لا يتعارض مع تعاليم الإسلام وهذا بحصره في الميادين العلمية البحتة التي كان المسلمون في أمس الحاجة إليها آنذاك بقوله (31) : "لا مجال لإنكار كون الإفرنج في زماننا وقبله قد تمهروا في العلوم الرياضية والطبيعية والصناعية مع تقيدهم بما يتعلق بأمر أخراهم، وخصوصا الطب والنجوم والهندسة وكثير من العمليات حتى صار ذلك كالمختص بهم مع إقرارهم بأن مأخذهم لذلك كان من كتب الإسلام، ثم زادوا عليها ما صح عندهم بالتجربة والمشاهدة. أما المسلمون فقد أهملوا علم الطب ونحوه وصرفوا كل همهم إلى العلوم الشرعية والأدبية لمقاصد متنوعة ... ولكن أكثر الناس أعداء ما جهلوا".

في حين كان رفاعة الطهطاوي أكثر إعجابا وانبهارا بالمناخ العلمي والعقلي الذي وقف عليه في باريس، فتجلت تمثلاته في إيمانه بقدرة العقل على إصلاح الأشياء إذا توفرت الشروط اللازمة لذلك، وتُعرف عنده بـ "النواميس الطبيعية"، حيث جاء على لسانه في كتابه المرشد الأمين (32) : "ولما كانت أعمل كل نوع من أنواع المخلوقات، وكل عضو من أعضاء فرد ذلك النوع، منقادة لنواميس طبيعية عمومية، خصته بها الحكمة الإلهية، كان لا يمكن مخالفة هذه النواميس بدون اختلال للنظام العام والخاص، وهذه النواميس الطبيعية التي خصت بها العالم القدرة الإلهية عامة للإنسان وغيره ... وأغلب هذه النواميس الطبيعية لا يخرج عنها حكم الأحكام الشرعية، فهي فطرية خلقها الله سبحانه وتعالى مع الإنسان، وجعلها ملازمة له في الوجود، فكأنها قالب له، نسجت على منواله، وطبعت على مثاله..".

كما دعا إلى استخدام الميزان المبني على التحسين والتقبيح العقليين، أي إخضاع كل فعل سواء كان سياسيا أم فكريا أم اجتماعيا إلى تحكيم العقل لا الدين إذ قال في هذا الشأن "وقد أكرم الله سبحانه وتعالى الإنسان ... وزينه بالعقل الذي يميز به بين الحسن والقبيح والضار والنافع والخطأ والصواب، وجعل سبحانه وتعالى الإنسان، المتصف بالقريحة الذكية والملكة القوية، موفقا لتحصيل العلم واستفادته واستنباطه وإفادته" (33).

فنزعته العقلية هاته جعلت بعض المستشرقين يصفونه بأنه كان عقلانيا أكثر من عقلاني فرنسا (34)، ومع ذلك كان له موقف معارض من الفكر الفلسفي الأوروبي القائم على البدع والضلال على حد قوله (35): "... غير أن لهم في العلوم الحكمية حشوات ضلالية مخالفة لسائر الكتب السماوية، ويقيمون على ذلك أدلة يعسر على الإنسان ردها، ... ولنقل هنا: أن كتب الفلسفة بأسرها محشوة بكثير من هذه البدع...". فهو بذلك يحد من انطلاق العقل، إذ يقرنه بما أقره الشرع، حتى لا يتعارض معه، وبالتالي فإنه يحد من حرية الإنسان في التفكير، إذ يقر بأن: "ليس لنا أن نعتمد على ما يحسنه العقل أو يقبحه إلا إذا ورد الشرع بتحسينه أو تقبيحه" (36). وأنه "... فلا عبرة بالنفوس القاصرة الذين حكموا عقولهم بما اكتسبوه من الخواطر التي ركنوا إليها تحسينا وتقبيحا، وظنوا أنهم فازوا بالمقصود بتعدي الحدود، فينبغي تعليم النفوس السياسة بطرق الشرع، لا بطرق العقول المجردة، ومعلوم أن الشرع الشريف لا يحظر المنافع ولا درء المفاسد. ولا ينافي المتجددات المستحسنة التي يخترعها من منحهم الله تعالى العقل وألهمهم الصناعة" (37). ويقول أيضا في هذا الشأن: "بالإدراك يقتدر أن يرتب المقدمات لاستخراج النتائج، وأن ينسب الماضي للحال، ويتبصر في عواقب المستقبل، ويتصور أسباب الظواهر الجوية والحوادث السماوية، ويميز الحسن من القبيح والضار من النافع، وبالإدراك والفهم يصلح الإنسان الأشياء ويشكلها على الوجه المطلوب" (38).

ويدل كل ما تقدم على أن رفاعة الطهطاوي عرف مراحل أساسية في مسار حياته الفكرية جعلته في بدايتها يتبنى الموقف العقلاني ثم نجده في مرحلة متقدمة منها متحفظا تجاهه، إذ ينتصر له في العلوم العلمية الإنسانية ويتحفظ على قدراته في القضايا الدينية الشرعية (39). مما يدل على أنه لم يتمكن شأنه شأن حمدان خوجة من نزع العباءة الشرقية، ومع ذلك فقد مثلوا أحد المعالم الأساسية لانتقال الطبقة المثقفة العربية فيما بعد من الفكر اللاهوتي الديني إلى الفكر العلماني الذي يظهر مع نهاية القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

فكل منهما –خوجة والطهطاوي- تحدث عن دراية ومعرفة بالواقع العربي الإسلامي والأوروبي الفرنسي، وتطلعا لتحقيق يقظة شاملة بأوطانهما واسترجاع أمجاد الحضارة الإسلامية الزاهرة. فكانت دعوتهما تنويرية بالدرجة الأساسية، لأنهما

ركزا كثيرا على الجانب العلمي وعلى تخليص العقل من الآراء الرافضة للتجديد باعتباره بدعة مضلة.

ثالثا- آراؤهما حول الحل السياسي

لقد عُرف كل من حمدان خوجة ورفاعة الطهطاوي بالعقل المستنير، إذ كانا يراقبان ويدققان فيما يدور حولهما من أحداث سياسية واجتماعية وعلمية ما كوّن عندهما حسا نقديا. كما أن الثقافة الموسوعية التي حصلاها -أثناء وجودهما في باريس- من إمعان النظر في تكوين المجتمع الفرنسي وتقاليده وأشيائه الحضارية وعاداته ومعتقداته السياسية والفكرية جعلت معرفتهما شبه متكاملة.

لقد تعرف كل من حمدان خوجة ورفاعة الطهطاوي على الحركات السياسية وأنظمة الحكم الأوروبية عن قرب، وأعجبا كثيرا بمبادئ الثورة الفرنسية التي كانت المبادئ الأساسية لهذه الحركات والأسس التي قامت عليها ومنها الحرية والديمقراطية والدستور "المشروطية" والوطن والأمة والقومية (40). فكان لهذه المفاهيم والشعارات السياسية والاجتماعية تأثيرا كبيرا لدى المفكرين العرب تجلى في خطاباتهم وكتاباتهم السياسة آنذاك.

ارتكزت النظرية السياسية لدى كل من حمدان خوجة ورفاعة الطهطاوي على مبادئ الثورة الفرنسية (الحرية والمساواة والإخاء)، والتي لا تتنافى مع روح الشريعة الإسلامية لاسيما فيما يخص النظام الجمهوري الذي أعجب به حمدان خوجة حين أشار إلى معرفة الجزائريين للنظام الجمهوري في ظل الحكم العثماني، فهو من وجهة نظره لا يتعارض مع ما تدعو إليه فلسفة الأنوار إذ يقول: "... وبعبارة أوضح نستطيع القول بأن الجزائريين اختاروا مبادئ الحكم الجمهوري ورئيس الجمهورية هو الداي" (41). ثم نجده يجري مقارنة فيما يخص النظام الجمهوري في كل من الجزائر وأوروبا حيث يقر بوجود فرق بسيط في التطبيق فحسب بقوله: "وفي أثناء رحلتي إلى أوروبا، درست مبادئ الحرية الأوروبية التي تشكل أساس الحكم التمثيلي والجمهوري، ووجدت أن هذه المبادئ كانت تشبه المبادئ الأساسية لشريعتنا إذا استثنينا فارقا بسيطا في التطبيق، وعليه فكل من يدرك الشريعتين إدراكا صحيحا يستطيع الموافقة بينهما .." (42).

وانعكس هذا التأثر لدى حمدان خوجة في ميله إلى أن يكون الحكم ديمقراطيا وشوريا بين الناس وتظهر هذه النزعة في نص رسالته إلى السلطان العثماني محمود الثاني مقترحا عليه نمط الحكم الذي يجب أن يسود في الجزائر في حالة استرجاعها من قبل السلطان بقوله: "... يجب على الباشا الجديد أن يسعى للتفاهم معنا وإن لا يحكمنا باستبداد، بل عليه أن يستشيرنا في كل المسائل. وبهاته الطريقة يستطيع أن يجلب إليه اهتمام الشعب كله، ونتمنى أن يكون مثلا للعدل والحق اقتداء بالرسول محمد (صلعم)... ويجب علينا إذن أن ننشئ ديوانا يضم الجزائريين العقلاء والمثقفين

والعارفين بأخلاق البرابر، حتى نسوس البلاد بنجاعة ... أوصى القرآن الكريم النبي محمد (صلعم) أن يستشير أصحابه ..." (43).

كذلك لم يكن حمدان خوجة يرى مانعا في أن يستمر الاحتلال الفرنسي في الجزائر مادام يعمل على تفويض الحكم لشخص من الجزائريين، بشرط أن تتوفر فيه المواصفات المطلوبة على أن يضمن مصالحه في الجزائر أفضل من إتباع سياسة الاستبداد حيث جاء في (المذكرة): "ثانيتها: أن تختار، أميرا، مسلما، معروفا بحنكته السياسية، ورأيه الحصيف وجدارته بما يسند إليه. ويشترط فيه أن يكون شجاعا، أبيا، ثم تفوض له شؤون هذا الشعب، بعد إبرامها معه اتفاقا، يضمن لفرنسا مصالحها في الجزائر. ولو سلكت فرنسا هذا السبيل الثاني لحازت سمعة في العالم، ,اصبحت قدوة حسنة لغيرها من باقي الدول المستعمرة.." (44).

وقد جاء على لسانه ناصحا أعيان الجزائر بعدم مغادرة البلاد بعد تسليم المدينة للفرنسيين بقوله: "إننا سنتمتع بحريتنا ونعامل بكل عدل وبقطع النظر عن كون زيد أو عمر هو الذي يحكمنا، فإن المهم هو أن نحكم كما ينبغي وفقا لمبادئ الحكومة الفرنسية، وأن لا تمس ديانتنا، إن الدين شيء روحي لا ننافس فيه، وإن الفرنسيين رجال ستجمع بيننا وبينهم الأخوة. ومن جهة أخرى فإن عماد الحضارة هي حقوق الإنسان، ولذلك فإننا لا نخشى شيئا من أمة متحضرة" (45).

كان رفاعة الطهطاوي على عكس حمدان خوجة، يفضل "الملكيات الدستورية" على النظام الجمهوري ويبرر ذلك بقوله: "كان المنصب الملوكي في أول الأمر في أكثر الممالك انتخابيا بالسواد الأعظم وإجماع الأمة، ولكن لما ترتب على أصل الانتخاب ما لا يحصى من المفاسد والفتن والحروب والاختلافات، اقتضت قاعدة كون درء المفاسد مقدما على جلب المصالح، اختيار التوارث في الأبناء وولاية العهد على حساب أصول كل مملكة بما تقرر عندها. فكان العمل بهذه الرسوم الملوكية ضامنا لحسن انتظام الممالك" (46). وهو ما يعكس مدى وعي الطهطاوي وفهمه للتراث الإسلامي، كما يدل على مدى إعجابه بشخصية محمد علي وبسياسته رغم أنه لم يغفل عن توجيه انتقادات لبعض المشاريع والمواقف التي اتخذها باشا مصر.

كما يظهر تأثره الكبير بفلسفة الأنوار، من خلال الدعوة إلى الفكر الديمقراطي الليبرالي القائم على مجموعة من الأسس، وفق المرجعيتين الإسلامية والأوروبية والتي أقر بأهميتها القصوى من أجل بناء دولة مدنية حديثة وهي: "الحرية، الوطنية والقومية، والزمنية والعلمنة"، إذ توصل إلى إيجاد منظومة فكرية موحدة وجامعة بينهما في فكر واحد صالح لكل الأمة العربية الإسلامية بشكل عام ومصر بشكل خاص (47).

وللتأكيد على عدم التنافر بين المرجعيتين يدلل على أن "الحرية والمساواة" مثلا، ليست مستحدثة بالنسبة للعرب فهي تعني "العدل والإحسان" بقوله: "وما نسميه بالعدل

والإحسان يعبرون عنه بالحرية والتسوية" (48). ولا يكتفي بهذا القدر بل يذهب إلى حد الدعوة إلى تعليم مبادئ السياسة لكل فئات المجتمع فهو يقول: ".. فقد جرت العادة في البلاد المتمدنة بتعليم الصبيان القرآن الشريف في البلاد الإسلامية وكتب الأديان في غيرها قبل تعليم الصنائع. وهذا لا بأس به في حد ذاته، ومع ذلك فمبادئ العلوم الملكية السياسية التي هي قوة حاكمة عمومية وفروعها مهملة في الممالك والقرى بالنسبة لأبناء الأهالي، مع أن تعليمها أيضا لهم مما يناسب المصلحة العمومية فما المانع من أن يكون في كل دائرة بلدية معلم يقرأ للصبيان بعد تمام تعليم القرآن الشريف والعقائد ومبادئ العربية مبادئ الأمور السياسية والإدارية، ويوقفهم على نتائجها..." (49).

ولعل أهم ما يبرز أن الطهطاوي من أوائل المتنورين العرب، تبنيه نظرية الفصل بين السلطات الثلاث للدولة بين التشريعية والقضائية والتنفيذية على أن تكون مقيدة بقانون وخاضعة لدستور "فهذه القوى الثلاثة ترجع إلى قوة واحدة وهي القوة الملوكية المشروطة بالقوانين" (50). وهو بهذا يتجاوز حمدان خوجة كثيرا، كونه أعطى تصورا كاملا للفكر السياسي بمؤسساته ونظمه ومبادئه النابع من الفكر الأوروبي دون التعارض مع روح الشريعة الإسلامية، ولهذا نجده يدعو إلى الاستفادة من التشريع الأوروبي في هذا المجال، إذ جاء على لسانه ".. ومن زوال علم أصول الفقه، وفقه ما اشتمل عليه من الضوابط والقواعد، جزم بأن جميع الاستنباطات العقلية التي وصلت عقول أهالي باقي الأمم المتمدنة إليها، وجعلوها أساسا لوضع قوانين تمدنهم وأحكامهم قل أن تخرج عن تلك الأصول التي بنيت عليها الفروع الفقهية التي عليها مدار المعاملات، فما يسمى عندنا بعلم أصول الفقه يسمى ما يشبهه عندهم بالحقوق الطبيعية أو النواميس الفطرية، وهي عبارة عن قواعد عقلية، تحسينا وتقبيحا، يؤسسون عليها أحكامهم المدنية، وما نسميه بفروع الفقه يسمى عندهم بالحقوق أو الأحكام المدنية... وما يتمسك به أهل الإسلام من محبة الدين والتولع بحمايته، مما يفضلون به عن سائر الأمم في القوة والمنعة، يسمونه محبة الوطن .." (51).

ولتحقيق الحكم الديمقراطي يجب أن يرتكز من وجهة نظر كل من حمدان خوجة ورفاعة الطهطاوي على جملة من الشروط، التي يتوجب أن تتوفر في الحاكم والمحكوم باعتبارهما الدعامتان الأساسيتان التي تقوم عليها أي دولة. إذ تطرق حمدان خوجة إلى هذه الشروط والمزايا بقوله: "يجب على الحاكم أن يتخلص من أهوائه الذميمة وأن يكون قويا رحيما، لا طاغية حقودا ... لا ينبغي له أن يقوم بأعمال تثير الظنون ولا أن يكون له سلوك مشبوه ومطبوع بغض مخز... كما يجب عليه أن يجتهد في تخفيض أسباب الجنوح لأن البؤس كثيرا ما يؤدي إلى القيام بالأعمال الشريرة" (52). ذلك أن الحاكم الصالح يمكنه استمالة رعيته بفضل السياسة العادلة التي ينتهجها.

ولهذا نجده في كل مرة ينبه الفرنسيين إلى الأساليب التي من خلالها يتمكنون من كسب قلوب الجزائريين ويذكرهم بما حققوه في مصر بقوله: "إن الحكومة الفرنسية

تستطيع أن تتبع نفس الطريقة التي طبقت في مصر. وإن تقدمها سيكون أمرا محققا ولا يمكن أن يشك في نجاحها. ذلك أن إصلاح مصر وتدعيم النفوذ الفرنسي فيها لم يتحققا بواسطة الإدارة الفرنسية والعنف، وإنما يعود الفضل لنائب الملك وللعمل باسمه في إدخال الحضارة والفنون... " (53). ليس هذا فحسب بل سعى بكل السبل إلى إقناع الحكومة الفرنسية بفشل سياستها في الجزائر إن استمرت في تجاهلها لقوانين العصر بقوله: ".. فإنني لم أرى إمكان المعالجة لمشاكل الحالة الراهنة في الجزائر. وذلك لأننا لسنا نعيش في عصر الفروسية والتعصب الديني، بل نحن –من حسن الحظ- نعيش في عصر ازدهار المدنية وتقدم العدالة الاجتماعية. وقد قلت بصراحة وبدون تحفظ، إن هذه الوسيلة الأخيرة هي التي تمكن فرنسا من فتح إفريقية (الجزائر) فتحا حقيقيا لأن أنجح الفتوحات هو فتح القلوب البشرية ولا يمكن فتحها إلا بالعدالة والإنصاف وليس بالشدة والعنف وقوة السلاح" (54).

فالحاكم العادل بالنسبة لحمدان خوجة هو الذي يستطيع التمييز بين المنفعة والمضرة لرعيته، ولا يندفع وراء أهواء المتعصبين والجهلة "فيجب عليهم أن يبادروا بإصلاح ما يدخل الضرر؛ أي تحقق مدخل الضرر وإمكان دفعه. ولا يرخص لهم – بعد تحقق ذلك- أن يساعدوا الجهال على تعصبهم وجهلهم؛ كما يجب عليهم تغيير الرسوم التي لم يأمر الشرع بالتزامها؛ إذا كان في تغييرها دفع مضّرة أو جلب منفعة ..." (55).

وعلى نفس المنوال ارتكزت دعوة الطهطاوي على ركيزتين أساسيتين لتجديد التشريع العربي؛ أولاهما تراث الحضارة الإسلامية في التشريع بعد تطويره ليتماشى وروح العصر ومن جهة أخرى التشريع الأوروبي الذي لا يخرج عن "الأصول والأحكام التي أقرها الشارع". ويتجلى ذلك في قوله: ".. ومن أمعن النظر في كتب الفقه الإسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة العمومية حيث بوبوا للمعاملات الشرعية أبوابا مستوعبة للأحكام التجارية كالشركة والمضاربة والقرض والمخابرة والعارية والصلح وغير ذلك ولا شك أن قوانين المعاملات الأورباوية استنبطت منها ... مع أن المعاملات الفقهية لو انتظمت وجرى عليها العمل لما أخلت بالحقوق بتوفيقها على الوقت والحال مما هو سهل العمل على من وفقه الله لذلك من ولاة الأمور المستيقظين ..." (56).

وشبه حمدان خوجة الحاكم أو ولي الأمر برب الأسرة فهو راع وكل راع مسؤول عن رعيته وفق القاعدة الشرعية التي تقوم على العدل والإحسان "يجب على السلاطين، وعلى أولي الأمر، أن يكونوا مع من تحت تصرفهم بمنزلة الأب المطاع مع أطفاله، وأهل بيته" (57). بل طلب أكثر من ذلك "فلا يجوز -مثلا- أن يساعد بعض بنيه على ترك دفع الضرر عن بقية أولاده لجهل أو حسد؛ يكثر مثله بين الأخوة". ولم يقف حمدان خوجة عند حد التنظير بل سعى بكل الأساليب إلى تطبيق ما كان يؤمن به فمثلا نجده يتوجه إلى مخاطبة الملك الفرنسي "لويس فيليب" باعتباره أبا

وحامي حماة الإنسانية لينصف الجزائريين من جور وتعسف إدارة الاحتلال وينظر في القضية الجزائرية بقوله: "... إنني لم أخاطب ملكا يهزّ مشاعره سراب المداهنة ويطير بلبه خداع التملق، أنني لم أخاطب حاميا من حماة عرش الملك فحسب، وإنما أوجّه خطابي إلى أبي أسرة ذلك هو "لويس فيليب Louis Philippe" وما أدراك ما "لويس فيليب الذي يقدر قيمة البؤساء ويضحي براحته في سبيل سعادة فرنسا، ومن أجل الإنسانية جمعاء" (58).

لقد اتفق رفاعة الطهطاوي مع حمدان خوجة حول نوع العلاقة التي تشمل الحاكم والمحكوم، فشبههما بالأب والأبناء، فلا يمكن أن يكون أحدهما دون الآخر بقوله: "ثم أن الحكومة التي عبرنا عنها فيما سبق بالقوة الحاكمة .. تقتضي حاكما ومحكوما يعني ملكا ورعية فلا يفهم الملك إلا بالرعية ولا تفهم الرعية إلا بالملك كالأبوة والبنوة..." (59) وركز على طبيعة العلاقة بينهما والتي تقوم على مبدأ الحلم والعدل حيث أن "هذه المزية الجليلة لائقة بما ينبغي أن يكون عليه الملك من الرأفة والرحمة والحلم .. وليس لهذا الحلم المطلوب حد محدود ولا قيد مخصوص .. وإنما ضابطه أن يكون لرعيته بمنزلة الوالد في الشفقة على أولاده وإن حدث في الرعية حادث فليتداركه بلطفه وتدبيره .." (60).

تلك هي ملامح الفكر السياسي لكل من حمدان خوجة ورفاعة الطهطاوي وتصورهما لما يجب أن يكون عليه الحكم لتحقيق التقدم والتمدن لوطنهما؛ حيث يرى كل منهما في الحكم مسؤولية جسيمة يتوجب على الحاكم التحلي بالمبادئ الإنسانية باعتبارها وسيلة لتحقيق سعادة الآخرين بإقامة العدالة والحرية والمساواة، ولا يتحقق ذلك إلا بالتفاني والتضحية من أجل الصالح العام.

رابعا- نظرتهما للوطنية والقومية

لا يختلف حمدان خوجة في تصوره لكل من الوطنية والقومية عن رفاعة الطهطاوي، إذ جمعتهما المشاعر الوطنية والروابط القومية ذاتها وانعكست هذه المشاعر في كتاباتهما ودعواتهما إليها فكانا بذلك من آباء الوطنية الحديثة في بلديهما.

لقد اتهم حمدان خوجة بأنه كان يسعى من وراء عمله السياسي، الدفاع عن مصالحه الشخصية الضيقة على حساب القضية الجزائرية، إلا أن القائم على كتاباته وأقواله يعرف مدى حبه لوطنه وسعيه الحثيث ليحقق هدفه الأسمى في أن تكون "الجزائر للجزائريين"، فهو يتمتع بشعور وطني عميق مكّنه من التمييز بين مفهومي الوطنية كما نعرفها اليوم وبين القومية بشكلها العام والمقصود بها القومية الإسلامية في ظل الحكم العثماني باعتبار سلطانه خليفة المسلمين. مما يدل على مدى استيعابه وفهمه لما كان يحدث بأوروبا من تطورات على مستوى المفاهيم السياسية، فنجده عندما يشير إلى الوطنية يتحدث عن اليونانيين وشعوب البلقان والبلجيكيين والبولنديين وغيرهم من الشعوب الأوروبية التي تمكنت من تحقيق وحدتها السياسية المستقلة في

حين سلبت حرية أبناء وطنه، ولهذا نجده يلوم الرأي العام الأوروبي وخاصة الفرنسي بقوله: "إنكم تعطون الملايين لليونانيين وللبولونيين: !! .. وتنجدون تلك الشعوب بأموال الجزائريين !! إنكم تستغلون هذا البلد المسكين، ومع ذلك، فإن الجزائريين، أيضا أناس !!" (61) ...

ويعد بذلك حمدان خوجة أول من نادى واستعمل عبارة "الجزائر للجزائريين" (62) وفق المفهوم الوطني الذي كان سائدا في النصف الأول من القرن التاسع عشر، مؤكدا أن الجزائر تشترك في مقومات كثيرة مثل الشعوب الأوروبية ولهذا بذل كل مساعيه من أجل الدفاع عن القضية الوطنية، حيث جاء على لسانه مبرزا وطنيته الفذة "إني جزائري، محبّ للإنسانية، فمن واجبي –إذن- أن أتعرّف أغوار قضية الجزائر ومشاكلها، ومصدر بؤسها، وسبب الحرب فيها، وحقيقة أوضاع شعبها، قبل الاحتلال الفرنسي وبعده" (63).

لقد طالب باستقلال الجزائر واقترحه على فرنسا كحل لمشكلة بلاده قائلا: "ومن الأحسن لفرنسا أن تخلي البلاد من جنودها، وتترك الحكم لسكانها، فلماذا لم تسلك سبيلها في الجزائر مثلما سلكته في مصر؟ خصوصا ونحن في عصر لا يسمح لأية دولة من الدول أن تستعمر أي شعب من الشعوب، هذا وإننا على يقين بأن المدنية الفرنسية لم تجد طريقا معبدا إلى مصر، إلا على أيدي أمراء المسلمين أنفسهم .." (64). بل زاد على ذلك بقوله "فإذا كان حب وطنكم راسخا في قلوبكم، فغير ممكن عدم استجابتكم لمطالبة حقوقنا. وكيف لا، ونحن مثلكم في حب وطننا؟ " (65).

وقال أيضا "إني لأعتز بمطلبي النبيل واقتراحي الشريف، عندما أفكر أن اليونانيين مدينون للفرنسيين باستقلالهم، وأن البلجيكيين مدينون لهم – أيضا - بتحريرهم ... فلماذا – إذن- لم يحض الجزائريون بمثل ما حضي به هؤلاء وأولئك؟ اللهم لا ! إن الجزائريين لا يستحقون الطرد من مجتمع الجنس البشري، وأن حرارة الدم الذي يجري في شراييهم لا يقل حرارة عن الدم الجاري في شرايين الفرنسيين .." (66).

أما فيما يخص القومية من منظور حمدان خوجة، فكان يراها في الخلافة أو في الجامعة الإسلامية بشكل أساسي باعتبار أن السلطان العثماني هو القائم على حماية المسلمين جميعا، ولهذا كان يوجه خطابه إلى السلطان محمود الثاني من أجل إيجاد حل لمعضلة الجزائر على سبيل المثال لا الحصر قائلا له: "إن المسلمين الذين استشهدوا ودفنوا في هاته التربة، سوف يسألونكم، يوم الحساب، لماذا تخليتم عنهم" . (67)

أما رفاعة الطهطاوي فقد حاول بكل الأساليب التنقيب عن مصطلح الوطنية في التراث العربي الإسلامي وفي تاريخ مصر من أجل ربط الماضي بالحاضر، حيث استخدم مصطلح "الملة" كمرادف للقومية والجنسية والوطنية، إذ يقول في هذا الشأن "الملة في عرف السياسة كالجنس: جماعة الناس الساكنة في بلدة واحدة، تتكلم بلسان

واحد، وأخلاقها واحدة، وعوائدها متحدة، ومنقادة غالبا لأحكام واحدة، ودولة واحدة" (68) . ويضيف على هذا بقوله: "لقد اقتضت حكمة الملك القادر الواحد أن أبناء الوطن دائما متحدون في اللسان، وفي الدخول تحت استرعاء ملك واحد، والانقياد إلى شريعة واحدة وسياسة واحدة" (69).

لقد احتل الوطن والوطنية مكانة متميزة في فكر الطهطاوي، وحرص على غرسها في نفوس مواطنيه منذ الصغر، كما قرن بين الوطنية والحرية باعتبارها من المبادئ الإنسانية بقوله: "... أنه يتمتع بحقوق بلده، وأعظم هذه الحقوق الحرية التامة في الجمعية التأنسية، ولا يتصف الوطني بوصف الحرية إلا إذا كان منقادا لقانون الوطن ومعينا على إجرائه، فانقياده لأصول بلده يستلزم ضمنا ضمان وطنه له التمتع بالحقوق المدنية، والتمزي بالمزايا البلدية، فبهذا المعنى هو وطني وبلدي، ... وهذه أعظم المزايا عند الأمم المتمدنة.... والآن تغيرت الأفكار، وزالت عن أبناء الوطن هذه الأخطار، فالآن ساغ للوطني الحقيقي أن يملأ قلبه بحب وطنه لأنه صار عضوا من أعضائه" (70).

ويتضح من خلال ما تقدم أن العلاقة بين الوطن والمواطن بالنسبة لرفاعة الطهطاوي علاقة تعاقدية، فالمواطن لا يؤدي ما عليه لوطنه إلا إذا حصل على حقوقه من وطنه ويؤكد على تلك العلاقة بقوله ".. فصفة الوطنية لا تستدعي فقط أن يطلب الإنسان بحقوقه الواجبة له على الوطن، بل يجب عليه أيضا أن يؤدي حقوق الوطن عليه، فإذا لم يوف أحد من أبناء الوطن بحقوق وطنه ضاعت حقوقه المدنية التي يستحقها على وطنه" (71).

ولقد كان يرى في مصر المحور الأساسي في بعث الحضارة والتمدن ونشر الروح الإنسانية والوطنية بالنسبة للمحيط العربي والإفريقي (72). كما نبه إلى الأطماع الاستعمارية التي تحيط بمصر متخفية وراء تطوير مصر وإصلاح حالها فوصف هذه الدعاوي والمزاعم بأنها "من التشبهات الفاسدة، وإنما يقتل النفوس التشهي" (73) ونصح بالتصدي لذلك عن طريق القوة وبحب الوطن.

على أن أهم نقطة ركز عليها رفاعة الطهطاوي وعبّر عنها بصراحة هي فصل مصر عن الدولة العثمانية وتكريس مفهومي القومية العربية والوطنية المصرية. ويكفيه أنه قد تحدث عن مصر فقال: "فإذا أبدينا بعض محاسن أم الدنيا والنعمة، التي هي كنانة الله في أرضه، ظهر لنا أنها تعد أول وطن من أوطان الدنيا يستحق أن تميل إليه قلوب بنيه، وأنه أحق أن تحن إليه نفوس مفارقيه من ذويه" (74).

الخاتمة

من كل ما تقدم يتضح جليا أن حمدان خوجة يعد من أكبر مفكري العالم الإسلامي الذين ظهروا في القرن التاسع عشر بل من أوائل دعاة التحديث والتنوير في البلاد

العربية وأبا الحركة الوطنية الجزائرية على غرار رفاعة الطهطاوي وخير الدين التونسي وغيرهم من رواد التنوير والتجديد والإصلاح العرب المسلمين.

جعل حمدان خوجة من التراث والفكر الإسلامي القاعدة الأساسية التي يرتكز عليها في المحاججة والإقناع بالنسبة للأوروبيين والاستناد على الفكر الأوروبي ومقارنته بهذا التراث في إقناع الجزائريين بالأخذ بالمدنية الغربية، على عكس رفاعة الطهطاوي الذي جعل من المدنية الغربية المرتكز الأساسي في الدعوة إلى بناء دولة عصرية ثم محاولة تأصيل الأفكار التي يدعو إليها بالرجوع إلى المرجعية الإسلامية.

إن التجربة الباريسية جعلت منهما مفكران تنويريان حديثان في نظرتهما وأفكارهما، عميقان في تشخيصهما للمسائل الفكرية والسياسية والاجتماعية الأساسية التي كان يعاني منهما المجتمعين الجزائري والمصري، إذ كانا يعيشان مع أكثر العقول تقدمية وأشدها ثورية وتلقيا بفكرهما ووجدانهما كل الفلسفات العميقة العقلانية منها والوجدانية، المادية منها والمثالية المنسجمة منها والمتضاربة مما أكسبهما حسا نقديا مرهفا وعلميا في الوقت ذاته وجعلهما من رواد الفكر التنويري العربي خلال القرن التاسع عشر، كما نجحا في تقديم نماذج حية على إمكانية التوفيق والتناغم بين تعاليم الإسلام والفكر السياسي الغربي.

الهوامش

1. الهادي التيمومي، تونس والتحديث أول دستور في العالم الإسلامي، ط1، دار محمد علي للنشر، صفاقس الجديدة – الجمهورية التونسية، 2010. (السلسلة: مسالك – تاريخ)/.13

2. هشام جعيط، "النهضة وحركات الإصلاح ومفهوم الثورة في العالم الإسلامي الحديث"، مجلة المستقبل العربي، السنة الرابعة، العدد الثامن والثلاثون، نيسان (أبريل) 1982/4-5.

3. رفاعة رافع الطهطاوي، الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي؛ الجزء الثاني: السياسة والوطنية والتربية، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 185/1973.

4. عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ط:6، دار الثقافة، بيروت، 1983، 38/4.

5. G. Yver, 'Si Hamdan Ben Othman Khodja', Revue africaine 57 (1913), 96-138,

6. عبد الجليل التميمي، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي تونس – الجزائر – ليبيا من 1816 إلى 1871، تقديم روبار منتران، الدار التونسية للنشر، ط1، الدار التونسية للنشر، 142/1972.

7. حمدان بن عثمان خوجة، المرآة، تقديم وتعريب وتحقيق: محمد العربي الزبيري، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 11/1982. محمد بن عبد الكريم، من أعلام الجزائر حمدان بن عثمان خوجة الجزائري ومذكراته، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 84/1972-88.

8. حمدان خوجة: المصدر السابق/12.

9. نفسه/93.

10. نفسه/43.

11. عبد الجليل التميمي: المرجع السابق/133-134.

12. رفاعة رافع الطهطاوي، الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي؛ الجزء الأول: التمدن والحضارة والعمران، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 31/1973. سمير أبو حمدان، رفاعة رافع الطهطاوي: رائد التحديث الأوروبي في مصر، الشركة العالمية للكتاب، بيروت-لبنان، 12/1992-13. لويس عوض، تاريخ الفكر المصري الحديث من الحملة الفرنسية إلى عصر إسماعيل، الجزء الأول: الخلفية التاريخية، ط4، مكتبة مدبولي، القاهرة، 244/1987-295.

13. سمير أبو حمدان: المصدر السابق/21-26. رفاعة الطهطاوي: المصدر السابق /33-43. معن زيادة، "الحل السياسي عند رواد النهضة"، الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، أيام دراسية من 6 إلى 9 رجب 1404هـ موافق 23/20 أبريل 1983، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، (د.ت)، (سلسلة ندوات ومناظرات رقم 7/118).

14. رفاعة الطهطاوي، الأعمال الكاملة، 1/35-68. سمير أبو حمدان: المصدر السابق/37-46.

15. حمدان خوجة: المصدر السابق/20.

16. نفسه/الصفحة نفسها.

17. محمد بن عبد الكريم، المرجع السابق/190.

18. رفاعة الطهطاوي، الأعمال الكاملة، 1/43-45.

19. حمدان بن عثمان خوجة، إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس عن الوباء، تقديم وتحقيق: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968، (ذخائر المغرب العربي)/44-45.

20. نفسه/150-151.

21. سورة المائدة، الآية 79.

22. حمدان خوجة، المرآة، المصدر السابق/130.

23. عبد الجليل التميمي، المرجع السابق/170.

24. سورة الروم، الآية 7.

25. حمدان خوجة، إتحاف المنصفين، المصدر السابق/75. حمدان خوجة، المرآة، المصدر السابق/23-24.

26. حمدان خوجة، إتحاف المنصفين، نفسه/75-76.

27. نفسه/78.

28. رفاعة رافع الطهطاوي، مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية، تقديم: حلمي النمنم، دراسة: مصطفى لبيب عبد الغني، المجلس الأعلى للثقافة، (د.م)، 194/2002.

29. رفاعة الطهطاوي، الأعمال الكاملة، المصدر السابق، 97/1.

30. رفاعة الطهطاوي، مناهج الألباب، المصدر السابق/372-373.

31. حمدان خوجة، إتحاف المنصفين، المصدر السابق/72-73.

32. رفاعة الطهطاوي، الأعمال الكاملة، المرشد الأمين، 479/2.

33. نفسه/400.

34. رفاعة الطهطاوي، الأعمال الكاملة، المصدر السابق، 113/1.

35. رفاعة الطهطاوي، نفسه، "تلخيص الإبريز"، 159/2.

36. رفاعة الطهطاوي، نفسه، "المرشد الأمين"، 477/2.

37. نفسه/387.

38. نفسه/299.

39. رفاعة الطهطاوي، الأعمال الكاملة، المصدر السابق، 117/1

40. علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة 1798-1914 الاتجاهات الدينية والسياسية والاجتماعية والعلمية، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 98/1987.

41. حمدان خوجة، المرآة، المصدر السابق/127.

42. نفسه/130.

43. عبد الجليل التميمي، المرجع السابق/171.

44. محمد بن عبد الكريم: المرجع السابق/200.
45. حمدان خوجة، المرآة، المصدر السابق/202. محمد بن عبد الكريم، المرجع السابق/154.
46. رفاعة الطهطاوي، مناهج الألباب، المصدر السابق/354.
47. معن زيادة: المرجع السابق/119.
48. رفاعة الطهطاوي، الأعمال الكاملة، المرشد الأمين، 469/2.
49. رفاعة الطهطاوي، مناهج الألباب، المصدر السابق/350.
50. نفسه/349.
51. رفاعة الطهطاوي، الأعمال الكاملة، المرشد الأمين، 469/2.
52. حمدان خوجة، المرآة، المصدر السابق/242.
53. المصدر نفسه/274.
54. حمد بن عبد الكريم، المرجع السابق/228-229.
55. حمدان خوجة، إتحاف المنصفين، المصدر السابق/78.
56. رفاعة الطهطاوي، مناهج الألباب، المصدر السابق/162-163.
57. حمدان خوجة، إتحاف المنصفين، المصدر السابق/78.
58. محمد بن عبد الكريم: المرجع السابق/186.
59. رفاعة الطهطاوي، مناهج الألباب، المصدر السابق/353.
60. نفسه/358.
61. حمدان خوجة، المرآة، المصدر السابق/244.
62. نفسه/28. محمد بن عبد الكريم: المرجع السابق/190.
63. رسالة سي حمدان إلى اللجنة الإفريقية (باريز -26 أكتوبر 1833م). محمد بن عبد الكريم: المرجع السابق/203
64. محمد بن عبد الكريم، المرجع السابق/200.
65. نفسه/205.
66. نفسه/205.
67. عبد الجليل التميمي: المرجع السابق/169-170.
68. رفاعة الطهطاوي، الأعمال الكاملة، المرشد الأمين، 437/2.

69. نفسه، 433/2.

70. نفسه/433-434. شبل بدران، رواد التنوير الفكري، (د.ن)، (د.م)، (د.ت)، (مهرجان القراءة للجميع 96 مكتبة الأسرة)/24-25.

71. نفسه/434.

72. رفاعة الطهطاوي، الأعمال الكاملة، 131/1.

73. نفسه، تخليص الإبريز، المقدمة، الباب الثالث.

74. نفسه، المرشد الأمين، 430/2.

قائمة المراجع

- أبو حمدان (سمير)، رفاعة رافع الطهطاوي: رائد التحديث الأوروبي في مصر، الشركة العالمية للكتاب، بيروت-لبنان، 1992.

- بدران (شبل)، رواد التنوير الفكري، (د.ن)، (د.م)، (د.ت).

-التميمي (عبد الجليل)، بحوث ووثائق في التاريخ المغربي تونس – الجزائر – ليبيا من 1816 إلى 1871، تقديم روبار منتران، الدار التونسية للنشر، ط1، الدار التونسية للنشر، 1972.

- التيمومي (الهادي)، تونس والتحديث أول دستور في العالم الإسلامي، ط1، دار محمد علي للنشر، صفاقس الجديدة – الجمهورية التونسية، 2010. (السلسلة: مسالك – تاريخ).

- جعيط (هشام)، "النهضة وحركات الإصلاح ومفهوم الثورة في العالم الإسلامي الحديث"، مجلة المستقبل العربي، السنة الرابعة، العدد الثامن والثلاثون، نيسان (أبريل) 1982.

- الجيلالي (عبد الرحمان بن محمد)، تاريخ الجزائر العام، ط:6، ج4، دار الثقافة، بيروت، 1983.

- خوجة (حمدان بن عثمان)، **المرآة**، تقديم وتعريب وتحقيق: محمد العربي الزبيري، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982.

- خوجة (حمدان بن عثمان)، إتحاف المنصفين والأدباء في الاحتراس عن الوباء، تقديم وتحقيق: محمد بن عبد الكريم، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1968، (ذخائر المغرب العربي).

- زيادة (معن)، "الحل السياسي عند رواد النهضة"، الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر، أيام دراسية من 6 إلى 9 رجب 1404هـ موافق 20/23 أبريل 1983، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، (د.ت)، (سلسلة ندوات ومناظرات رقم7).

-الطهطاوي (رفاعة رافع)، الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي؛ الجزء الأول: التمدن والحضارة والعمران، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1973.

- الطهطاوي (رفاعة رافع)، الأعمال الكاملة لرفاعة رافع الطهطاوي؛ الجزء الثاني: السياسة والوطنية والتربية، دراسة وتحقيق: محمد عمارة، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 1973.

- الطهطاوي (رفاعة رافع)، مناهج الألباب المصرية في مباهج الآداب العصرية، تقديم: حلمي النمنم، دراسة: مصطفى لبيب عبد الغني، المجلس الأعلى للثقافة، (د.م)، 2002.

- بن عبد الكريم (محمد)، من أعلام الجزائر أعلام احمدان بن عثمان خوجة الجزائري ومذكراته، ط1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1972.

- عوض (لويس)، تاريخ الفكر المصري الحديث من الحملة الفرنسية إلى عصر إسماعيل، الجزء الأول: الخلفية التاريخية، ط4، مكتبة مدبولي، القاهرة، 1987.

- المحافظة (علي)، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة 1798-1914 الاتجاهات الدينية والسياسية والاجتماعية والعلمية، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، 1987.

- Yver (G.), « Si Hamdan ben Othman Khodja », in : la Revue Africaine, vol 124, 1913.